

.

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

أحمد الله الذي أوجدني من العدم، وأمدني بما لا أحصيه من النعم، فأشكره تعالى على ذلك كله، وهو المستحق للشكر، وأسأله الزيادة من فضله، فإنني عبده الذي لا يخرج عما له من دائرة الفقر، مصليا ومسلما على الوسطة في سائر الألاء، التي شملت العباد طول الأناء، صلاة وسلاما تامين، ولآله وأتباعه عامين.

أما بعد : فقد سنح لي إجابة لمقترح علي(1)، يريد جلب الخير إلي، أن أترجم هنا لنفسي بنفسي، لأبناء جنسي، وأسميه : بحديقة أنسي في التعريف بنفسي، فأجبتة إجابة سمع وطاعة، وقد اقتديت في هذا بجماعة من الأعلام كالسيوطي وأبي الربيع الحوات(2)، وكثيرا ما تمنيت العثور على ما ألفوه في التعريف بأنفسهم، فلم يتيسر لي ذلك، فسلكت هنا مسلكا ظهر لي أنه من السعي المحمود، حقق الله لي الرجاء به في بلوغ المقصود، فأقول والله الموفق :

قد تزوج والدي الأبر سيدي الحاج العياشي بن الحاج عبد الرحمن سكيرج الخزرجي الأنصاري بوالدتي السيدة فروح بنت السيد الحاج عبد الوهاب بن محمد التازي بتاريخ 28 رجب عام 1294هـ، بعد انقضاء عدتها من وفاة زوجها عمنا المرحوم السيد الحاج محمد(3) بن الحاج عبد الرحمن سكيرج، حسبما عثرت على ذلك برسم تزوجهما. وكانت ولادتي في شهر ربيع الثاني من العام المتصل بعام مقارنتهما، فكنت أول أولاده منها، وقد حدثتني والدتي أنها كانت أيام حملها بي مسرورة بحملها إلى أن وضعت، وقد كان قبل نفاسها أتى لباب سكاها بدار الشرفاء الطاهريين، في مقابلة وجه الداخل بدرج سيدي يدير، بحومة رأس التيالين من مدينة فاس، المجذوب الشهير

(1)

1345

8

:

50

(2)

:

1231

1160

379

3

116

3

1514

.133

(3)

بالسباعي(4) ووقف يزغرت رافعا بذلك صوته، وبيده وقيدة مشعولة، وهو ينادي أعطوها هذه، فخرجت امرأة لها بنت حاملة في البيت المقابل لبيت سكنى والدتي، فدفع لها الوقيدة مشعولة، ودخلت وهي مسرورة بذلك، وهي تقول لبنتها : خذي هذه، فإن سيدي السباعي أعطاكيها، فسمعتة يقول من وراء الباب : لا، لا، ادفعيها للأخرى في البيت الآخر، فقالت سمعا يا سيدي وطاعة، وأتت إلى والدتي ودفعتها لها، فصار كل من في الدار يتعجب من ذلك مع كثرة التردد والوقيدة لم تتطفئ، وقد استبشرت والدتي بذلك، وفرح والدي وقال : لا بد أن يكون من أمر هذا الحمل ما يكون.

وفي ليلة سابع ولادتي كان الأقارب عند والدتي مجتمعين، وهم يتقاضون في الإسم الذي يقع تسميتي به، وكل واحد يذكر إسماء، وذلك بعد العشاء ليلا، إذ وقع الدق بباب الدار، وسمعوا السيد السباعي المذكور يقول : قولوا له أحمد، قولوا له : أحمد، فخرج إليه سيدي الوالد فقال له : قل له أحمد، فقال سمعا يا سيدي على الرأس والعين، فدخل سيدي الوالد مستبشرا وقال : لم يبق خلاف في التسمية، قد سماه السباعي بأحمد، ولم يكن بباليهم يخطر هذا الإسم، وقالوا : إن هذا الصبي سيكون له شأن.

فصاروا ينتبعون أحوالي، وعلامة الجذب تلوح علي، وصرت أعمل مثل عمل ذلك المجذوب، فقالوا : إن هذا سيكون خليفة للسباعي، ولكن الله سلم، فقد كانت لذلك المجذوب أحوال، حيث يتطوف بالزقاق، حاملا بذيل جلابيته ترابا وحجرا، وينادي في الأسواق الزيت بكذا، الزرع بكذا، كأنه يجعل لذلك سعرا، والناس يتطيرون من ذلك، فلا تمضي مدة حتى يكون سعر ذلك وفق مقاله. وربما يصرح بموت شخص فيقع ذلك. ثم إن والدي قد اعتنى بأمرى، ووالدتي تنظر في شأني، خانقين علي من ذلك الجذب الذي يعد به المرء في حيز المعوم في هذه الدنيا. فحفظني الله وله الحمد من ذلك الجذب المطبق.

وقد كان في مجاورة الدرب الذي نحن ساكنون به رجل يبيع الحلوى موسوم بالخير، له محبة كبيرة في جانبي وأنا صغير. فكان يطلب من والدي ووالدتي أن أبيت عنده، فتقول له : يا سيدي : إنه يبول، فيقول : مقبول مقبول، فكان سيدي الوالد يشفق من حاله، فأبيت عنده وهو في فرح تام مع زوجته بي، وقد كانوا يتقاعلون بإقباله علي، وكان ممن هم موسومون بالصلاح. ثم بعدما عقلت القرية ذهب بي سيدي الوالد إلى المكتب عند الفقيه المدرر السيد ابن شقرون، بالحائوت التي عن يمين الداخل لحومة عين الخيل. ثم إلى الفقيه الطراف بقصد التعلم. ولم أستحضر شيئا مما استفدته من هذين الفقيهين، ولم أحصل على يديهما شيئا، بل الآن إنما تخطر صورتها بين عيني، من غير معرفتي بهما، لعدم ضبطي لحالي في ذلك الوقت بما كان يعتريني من الجذب، فلذلك لم أستحضر الآن جل الأحوال التي كنت عليها زمن الطفولة حتى انجلى عني الجذب أيام الصبا، فتعلمت الكتابة. فكنت في جل الأوقات لا أخرج من الدار إلا للمكتب ثم أرجع إليها. وأجمع بين يدي أوراقا فأخط عليها خطوطا وأجعل عليها دوائر بألوان، وأكتب بوسطها بعض الآيات، مع هذه الكلمة (بركة محمد) بالخط الكوفي بشكل أربعة عشر طولا وعرضا. وربما بعث ذلك، وأعمل ذلك مع تزويق بنشاط تام.

(4)

وكان جل أقاربي يعتقدون في جانبي، ويتبركون بما أكتبه من ذلك. وربما طلبوا مني كتب
حرز لهم طبق أغراضهم، فيقع ذلك لهم فيزيدهم ذلك في جانبي حسن ظن، وجميل اعتقاد، فكانت مع
صغر السن مقصودا لذلك. فتأقت نفسي إلى الخوض في علم الجدول، وسر الحرف والإسم، فكان أول
كتاب اشتغلت بمطالعتة في هذه الفنون هو الجزء الأخير من تذكرة الشيخ داوود الأنطاكي(5)، بعد أن
قرأت طرفا من القرآن. وكانت همتي مصروفة في ذلك.

ومع شدة اعتناء سيدي الوالد بي لم أكن أحفظ كثيرا. بل الغالب علي كثرة النسيان. وماذاك إلا
لعدم إقبالي بالكلية على حفظ ما أومر بحفظه. حتى كان رحمه الله يظن أنني لا أحصل شيئا مما كانت
والدتي تقدمني إليه لأكون مثل أخي من ضررتها سيدي محمد حفظه الله. فقد كانت تراه مقبلا عليه لما
له من الحفظ والنجابة، مع ذكاء وإقدام على الأمور. مع فصاحة زاد الله في معناه. وكانت تحب أن
أكون مثله. وأنا في بلادتي مقيم وجمود قريحة. إلا ما كان من الخوض فيما أشرت له، فقد كنت أجد
من نفسي إقبالا عليه، وقابلية في فك رموز ذلك الكتاب، واستقل الأمر عندي بمطالعة غيره من كتب
فن الجدول ونحوه من فنون السيميا، وأتعلق بمن له معرفة بذلك لأخذه منه، مع صغر سني.

وقد حرصت والدتي علي والدي بإدخالي للقرويين(6) حين دخل الأخ المذكور للقراءة بها،
فأدخلني إليها جبرا لخاطرها، وأنا لا أفقه إلا مجرد تهجي الخط، وحفظ طرف من متن المرشد

(5)

:

:

140 2

1008
.333 2

149-

:

(6)

245

.52

المعين لابن عاشر (7)، وذلك عام 1309هـ. وأول مجلس حضرت فيه مجلس شيخنا العلامة الشريف المولى عبد السلام بن عمر العلوي (8) في افتتاح ألفية ابن مالك. فجلست أول يوم بالصف الأول من مجلس درسه، فكان يلقي على الطلبة بعض الإمتحانات في التعليم فيجبونه. وأنا لا أجيب عن شيء منها. فاعتراني خلج كبير، فانقلبت بنفسي للصف الثاني، فصار يخصني بالنقائات ويلقي علي بعض الأسئلة. فلا أدر ما يقول، وصرت مهتما بأمري، وانتقلت لآخر الصفوف، وأجعل الطلبة حجابا بيني وبينه حتى لا يلقي علي ما يلقي عليهم.

وقد اعتراني بذلك هم كبير، فصرت أبكي حين أرى الطلبة يفهمون وأنا لا أفقه شيئا مما أقرأه. ويزيدني سيدي الوالد اغتماما باختباره لأحوالي، ويرى من الأخ ذكاء زائدا وحرارة كبيرة في الإقبال على التعلم، وأنا في برودة فكر، وبلادة فهم، فاتفق مع والدتي أن أتأخر عن القراءة في القرويين، وأزيد قراءة في المكتب نحو العاميين، فكان في ذلك لي نوع راحة.

وفي ذلك الإبان اشتري لنا جدنا البركة سيدي الحاج عبد الرحمن سكيرج (9) نسخة من الزرقاني (10)، وكنت اشتريت قبله نسخة من شرح ميارة الصغير (11) على متن المرشد، فكنت أنظر إلى خطه السلكي بالمطبعة المصرية، فكان يحلو في نظري حلوة لازلت أستحضر إلى الآن حسن ذلك الخط، وقد قضى علي ولو عي بعلوم السيميا أن لازمت المرحوم السيد سعيد السوداني بحومة الشرايليين من فاس، فكان لي به حسن استبصار في فهم اصطلاحات تلك الفنون، ومن ذلك الحين وأنا أبحث على الكتب المؤلفة في ذلك. فاطلعت على شروح مثلث الغزالي، وشروح منظومة

		(7)			
	1040		990		
			:		
276-274	2				
59	1161	299			
327	248	1			
	.175	4	732		
	.	25	1	(8)	
	.	6	1	(9)	
1020				(10)	
	1099				
			:		
	272	3	287	2	
.752	337	2	1177	304	(11)
	999			1072	
	:				
	249	1			
743	331	2	167-165	1	
	1200	309			
.11	6	140		1821	
		5			

المرغبي السوسي(12) ناظم المقنع، وعلى شروح أرجوزة الجزنائي(13)، وحصل لي ولوع كبير في استتساخ كل ما يرجع لفنون السيميا، وكتب الصوفية، وبالأخص مؤلفات ابن عزوز(14)، فكتبت بيدي من كتبه رسالة الصوفي للصوفي، وكتاب كشف الظمأ، ورسالة السر الوفي، وكتاب حل المعقود وعقد المحلول، وكتاب إثم البصائر، وغير ذلك من كتبه وكتب غيره.

وكان لي اعتناء بالإستطلاع على الفنون الغربية، فحضت في فن الطب والتشريح مع زوج ابنة خالتي الطبيب الشهير السيد الحاج الحسن الفطواكي. فقد كان أعجوبة في الأمور الجراحية بالعملية التي حضرت معه فيها، ورأيت المنفعة الحاصلة على يده في التقديح والشق في الإستسقاء الطبي ومعالجة الخنازير، وغير ذلك من استعمال المسهلات، وحفظه للمجربات، مع كونه لا يقرأ، فكنت أسرد له بعض المؤلفات الطبية فيفهم منها ما لا أفهمه، وتكون النتيجة عنده محققة، فأستفيد منه ما لا أستقيده من تلك الكتب التي منها التذكرة، وتسهيل المنافع، والمجربات، وغير ذلك.

									(12)
:	1089			1007					
	:								:
	()
40	203-185	10				182			
		313		554					
		.139	6			747	333	2	(13)
	495								
	.1183	417	2					564	(14)
				()	
						1204			
	310	1				69	4		
		.46							

وحضرت بمجلس جماعة من المدرسين منهم الشريف سيدي الطيب بن المولى أبي النصر البكراوي(20)، والشريف سيدي المهدي بن رشيد العراقي أخو مجيزنا العلامة القاضي سيدي محمد العراقي(21)، وأخيه سيدي المامون(22) رحمه الله، ومجلس الفقيه سيدي أحمد بن العباس البوعزاوي(23) قيم خزانة القرويين، والفقيه الخطيب بجامع الأندلس سيدي الطاهر بن الجلود السوداني، والفقيه السيد خليل بن صابر الخالدي(24)، والفقيه سيدي عبد السلام الهواري(25)، والفقيه المسن سيدي الطيب بن كيران(26) حيث حضرت مجلسه بين العشائين بجامع زقاق الماء في قراءة المرشد المعين، ومجلس درس الفقيه المحدث سيدي أحمد بن سودة(27) لصحيح البخاري بالحرم الإدريسي، وغيرهم من الفقهاء المدرسين في ذلك الوقت.

وقد طالت ملازمتي للدروس، ولم أحصل على ما تطيب به النفوس، بل ما زلت أعاني مرارة المرور بين يدي طلبة العلم الذين ذاقوا حلاوة العلم، وأنا في غباوتي من المترددين، ولعدم حصولي على شيء في تلك المدة، كان يعد سيدي الوالد أن ذلك مني من قبيل البطالة، وإضاعة العمر في لا طائل، فألزماني ملازمة المكتب، خصوصا حين شاهد نجابة الأخ حفظه الله بتقدمه وتأخري في حفظ ما قرأته، وكان غالبا ما يتخاصم مع سيدتي الوالدة في أمري. حتى أفضى الحال بإلزام الأخ المذكور

	25	1	(20)
.	30	1	(21)
.	30	1	(22)
.	38	1	(23)
.			(24)

1321

1326

19

.56	1	.23	3	(25)
-----	---	-----	---	------

:

23

1328

820	374	2	55	1	(26)
110 : 2			1900	4	
			.8		

8	3			1314
.234	3	1706	433	(27)

1321 10 1241

:

430	816	369	2	1694
269	2		456	1
.139	1	103-99 : 1		

بالجلوس معي بالمكتب، وكنا نفر من المكتب من قبل ذلك ونحن صغار السن، وحببت إلينا البطالة حتى آلى على نفسه أننا إذا لم نلازم القراءة فإنه يذهب بنا للخدمات الشاقة، وكذلك كان، فإنه أدخلني لحرفة الطرازة، وتكلم سرا مع المعلم ليمكر بي لكي أدوق وبال مشقة التعليم، وقصده بذلك تأديبي لأقبل على القراءة بقلب وقالب، وأدخل الأخ لدار الدباغة التي هي بحومة عين زليتي، ثم نقلني إليها مشددا علينا حتى ضاقت علينا الأرض بما رحبت. وقد حصلت على هذه الصناعة وعمرى نحو 12 عاما، وكلما شاهدنا الوالد نشتكى من تعب الخدمة يتشفى فينا ويظهر التشفى، لنعرف قدر ما كنا فيه من نعمة الراحة في التردد للمكتب.

وبعد شهور وردت لدارنا إحدى خالات والدي، وكانت امرأة سالحة، فحدثته بأنها رأت رؤيا ونحن بحضرته، وسكين بيده يقطع بها أيدينا، فصار يتأسف لرؤياها، وأولها بما نحن فيه، وفي الحين دخلت مع الأخ للدار، فرأنا في لباس تلك الخدمة، فأخذها حال وصارت تبكي، وقالت للوالد : هذا تأويل رؤيائي، ولا أخرج من هنا حتى تردهم لقراءتهم، ويرجعون لحالتهم، وأمريت بإحضار لوحتي التي كنت أتيت بها من المكتب حين خروجي منه، فأخذها سيدنا الوالد بيده، فوجد المحل الذي أنا ابتدأت به لوحتي قوله تعالى : "إنك لا تهدي من أحببت، ولكن الله يهدي من يشاء" (28)، فصار سيدنا الوالد يبكي، ثم ذهب بنا إلى المكتب بباب حومة المنية، لدا الفقيه المدرر سيدي محمد بن الهاشمي الكتامي (29)، فأقبل علينا ذلك الفقيه بنظرته، ولازما القراءة حتى ختمت القرآن، وقد أرضى سيدنا الوالد خاطر الفقيه المذكور بما مكنه به في الختم في محفل الإحتفال بالخدمة. ولقد حصل للفقيه المذكور حال، وأقسم بأيمان غليظة في مجمع الحاضرين للفرح بالختم بأن الله سيفتح علينا قرأنا أو لم نقرأ، فاستبشر بذلك سيدنا الوالد، وتم له الفرح بما اعتقده من إجابة الدعاء من معلمنا الفقيه المذكور، وكان فقيها مباركا مشهورا بإجابة الدعاء.

ومن ذلك الوقت وهمة سيدنا الوالد مصروفة لنجاحنا، وبث فينا روح محبة العلم للإقبال عليه، ويصحبنا معه للحضور لمجالس العلم، حتى دخلنا للقرويين في السنة الذكورة التي هي سنة تسع وثلاثمائة وألف، وهو مسرور بذلك يرد باله إلينا، ويحث كل واحد منا على التنافس، حتى كان الأخ سيدي محمد دائما له التقدم علي في القيام على ساق الجد في الحفظ والفهم، من غير أن أزاحمه في جميع ما قام به لاستيلاء الكسل علي، مع برودة الهمة في الطلب، حتى شعرت بروح التنافس تدب في نفسي حين صار الأخ في مكانة مكينة من التقرب إلى سيدنا الوالد، بما يمليه عليه من حفظه، ويظهر الحاضر معه بفهمه، وسيدنا الوالد يرضى عنه، ويلومني على التقاعد عما فاقت به أبناء الجنس علي، فصرت مغموما من شدة ما اعتراني، فصرت أتعلق بمن يأخذ باليد، لأبلغ من طلبي غاية المقصد،

(28) : 56.

(29) 1 20

حتى يسر الله باجتماعي بشيخنا العلامة سيدي الحبيب بن سيدي الحاج الداودي التلمساني(30) فشكوت له ما أنا مصاب به من سوء الفهم والكسل المستولي علي بعدم حفظ سوري، ونحو ذلك مما تقدم به علي طلبه العلم، فقال لي : إنك لم تهتدي لطريقة التعلم والتعليم، فإن الطريقة السهلة في الوصول للمقصود هي نصف الحفظ والفهم، فتعلقت بأذياله، فأشار علي بطرح كل ما علق بذهني مع الإقبال علي ما يشير به علي، فوفقتي الله لإجابته لما أشار به علي، ولم تمض مدة يسيرة حتى صارت مخدرات المعاني يلوح لي نور وجهها، من خلال ما أحفظه من متون وغيرها.

وكنت أيام قراءته معي أتردد لمجلس شيخنا العارف بالله سيدي إدريس عمور الفاسي(31)، ولازمته مدة حين حلت لي عبارته، ودقت من شراب المعنى، فوجدت من نفسي قابلية الحفظ مع الفهم، فأقبلت على تلقي ما يلقي إلي بكل الكلية، وعلمت عند ذلك أن القابلية في كل شيء بحسب الذوق لما يخوض فيه الطالب، وما دام لم يذق حلاوة الشيء الذي يريده إلا وهو في عناء تام، حتى إنه ربما يفضي به عدم فتح الباب في وجهه إلى اليأس من التحصيل، وأول ما حفظته قول الشاعر :

اطلب ولا تضجر من طلب
أما ترى الحبل بتكراره
فأفة الطالب أن يضجرا
في الصخرة الصماء قد أثرا

وقد اهتم بأمرني شيخنا سيدي الحبيب المذكور، فصار يناولني من فواكه الآداب، ما هو مستطاب، شيئا فشيئا، ويلزمني بحفظه، بعد أن يفهمني معنى ذلك، ويقول لي : لم يبق إلا الحفظ بعد الفهم، لأن الفهم نصف الحفظ، ويلزمني بتكرار ما حفظته، ويتفقدني المرة بعد المرة في الإستشهاد بما حفظته من الأدلة، خصوصا في أمثلة النحو والفرائض التي حصلتها بقراءتي لها عليه، فإن أصبت أقبل علي، وإن أخطأت لم يلتفت إلي، حتى أسترضيه عني بما في طوقي من تقبيل يديه، ويرى ذلك مني عن قريحة. وهكذا حاله معي حتى رأيت النحو الذي كنت أستصعب تحصيله من أسهل الفنون.

وقد جاراني في ميدان المسابقة على الغير بما بثه إلي من معارف عالية. وحصلت على النتيجة التي كنت راغبا فيها مما خضت فيه من علوم السيميا، التي كانت له اليد الطولى فيها، بعد أن كتم عني أمره في ذلك، ووجد مني تضلعا، لكن غير تام حسبما هنالك، وميزت على يده بين الحروف القولية والحروف الفعلية، بما اتضح لي من التعليم الحقيقي الذي تتم به المنفعة للطالب، وهناك رأيي الأخ سيدي محمد لابسا لحظة كنت متجردا عنها من قبل، فتعلق بأذياله واستفاد منه ما أخذه عنه. ولكن لم يلازمه ملازمتي له ليلا ونهارا، حتى كان يظن بعض من يراني معه أنني ابنه الوحيد الذي لا يفارق والده، وليس له عنه محيد، فكان من حسن تعليمه أنه لا يحبني أن أنظاها بمعرفة ما قرأته، حرصا علي بأن لا أفنع منه بما حصلت من الفن الذي يقرؤه معي.

.	29	1	(30)
.	29	1	(31)

ومن أعجب ما حصل لي معه أنه قرأ معي فن الفرائض بمنظومة العلامة الرسموكي (32) ممزوجة بنص المختصر. وكان يلزمني بتطبيق الإستشهاد بالنصين على كل مسألة قررت، غير أنه كان يختار منظومة الرسموكي، خصوصا باب أنواع الحجب منها على نص المختصر لسهولة استخدامها، بخلاف لفظ المختصر، فإنه يحتاج فيه إلى تأمل، وربط الفروض ونحوها بمراجعة ينشئت عندها شمل فكر من لم يكن حافظا لجل باب الفرائض، وإن كان مؤلف المختصر سلك في الفرائض مسلكا باهرا على أسلوب فاق به غيره من المتقدمين.

فاشتغلت بحفظ البابين حالة درسه معي هذين البابين، وكان يمزج لي فقه ذلك بالعملية الحسابية. وصرفت الهمة مني في تحصيل ذلك على أتم الوجوه، وكشف لي الحجاب عن صرف الجامعة بأمثلة متكررة، بتطبيق علم ذلك الفن على العمل به حتى حصلت ذلك، ونفسي تنوق إلى الاستطلاع على غير ما هنالك، وهو يظن مني القصور، فألفت مختصر الفذلكة الجامعة (33) في نفس العام الذي قرأت عليه ذلك الفن، وهو عام 1314 هـ في شهر رمضان وأتيت به إليه وقلت له : أنظر إلى هذا المختصر، وهو لأحد الفاسيين، فطالعه مطالعة انتقاد، فوجده جامعا لمطالب الفن من غير إخلال بصورة، فقال لي : إن هذا التأليف بديع، فخذ لي منه نسخة، لكونه في فنه جامعا مانعا نافعا، فواعدته بنسخة له، وبعد مدة سألتني عنه وقال لي : إن ذلك التأليف لا نظير له في باب، فأين النسخة التي واعدتني بها ؟ فقلت له : يا سيدي إنني مؤلفه، وقد استحيت من أن أتيك بنسخة من تأليفي، كما أني أبرهن لك به على تحصيلي لذلك الفن، فقال لي : يا سبحان الله، لا تخرج عن طبعك، فإني أريد بك الترقى، وأنت تحب الوقوف مع ما حصلت، وإن الغالب على طلبة العلم إذا استشعروا من أنفسهم الإدراك والفهم الوقوف عند ما حصلوا عليه دون الوصول للغاية القصوى، ظنا منهم أنهم ظفروا بالمقصود من ذلك العلم. وعلى كل حال فقد عرفنا منك أنك حصلت على المقصود الأهم من هذا الفن، فلا تكتف بما عرفته من سره، وغرفته من بحره، فإن فوق كل ذي علم عليم، فقلت له : يا سيدي الفضل لكم فيما أكرمني الله به على يدكم، وإنما مقصودي أن تزيد بي للأمام، فقال لي : إن الحق يقال، بأنك حصلت ذلك، وقصدي أن تكون دائما غير مكتف بما حصلت عليه من العلوم، والله يفتح عليك، وينفع بك، وينفعك آمين.

(32)

1133

:

:

192

337-330

18

107 1

61

.133 1

84 1

(33)

وقد كنت أثناء ملازمتي لشيخنا المذكور أحضر بعض الدروس العلمية بمواظبة قلما انقطعت إلا بمانع قهري، لما حصل لي من الشغف في تحصيله على اختلاف أنواعه، وقلما منعني عذر من حضور مجلس شيخنا العارف بالله نقيب الأشراف بفاس مولاي عبد الله بن إدريس البكراوي(34). في سرده لصحيح الإمام البخاري في الثلاثة الأشهر من رجب إلى متم شهر رمضان من كل سنة، ولو في الأعوام الماضية التي كنت فيها لا أميز شيئاً، حتى في مدة استخدامي، فقد كنت أحضر هناك مع سيدنا الوالد، وحضرنا مجلسه في قراءتنا للمختصر عليه، ونظر فينا والله الحمد بنظرته الخصوصية بين خواص تلاميذه، وشاهدنا من فتوحاته ما أوجب علينا الحمد لله في امتنانه علينا بملازمته وإقباله علينا، ونظره إلينا بعين القبول. ولقد رأينا من كشفه ما كنا نتباعد كثيراً من الوقوع فيما لا ينبغي، خشية أن يشافها بما صدر منا من ذلك، وكثيراً ما صرح بذلك في معرض النهي عن التعرض للمنهيات، ويكاد أن ينطق باسم من صدر منه شيء من ذلك(35).

ولم أرى أحداً ممن خالطناه ممن نخشى كشفه عن ذلك منا بالاً إلا شيخنا العارف بالله سيدي ومولاي أحمد بن محمد بن القويدر العبدلوي(36) التجاني، فقد لازمته منذ تقلدت بإذنه لي في أورد شيخنا التجاني سنة 1316هـ، وشاهدت من كشوفاته ما تحققت به من أن الكشف عما يخفيه المرید عن شيخه حق يوجب عليه أن يكون منه على بال، فيحفظ نفسه من أن ياتيئه مثلخا بما يقتضيه الهوى، خشية إفصاحه له عنه، وقد كان لي فيه اعتقاد كبير، وهو يعاملني بمقتضاه، حتى كنت غالباً ما أدخل عليه في داره وأطيل الجلوس معه ببيته، وقلبي مطمئن من الإلتفات لغيره، ولا أقدر أن أدخل عليه بجنابة أبداً، وقد اغترفت من بحر الطامي، بأسرار الختم التجاني، ما وجدت بركته بحمد الله في ذلك الإبان إلى الآن.

(34) 1 41

(35)

:

:

:

...

(36) 1 27

وقد أجازني بالتقديم لتلقيين أواردها، وأمدني بإمدادات سرية لا موجب لذكر شيء منها هنا، كما تلقيت الإذن في ذكر أواراد هذه الطريقة عن شيخنا العارف بالله سيدي ومولاي عبد المالك الضرير العلوي(37)، وعن شيخنا البكر اوي المذكور، والعلامة الفقيه السيد الحاج محمد فتاح بن عبد السلام كنون(38)، والمقدم البركة سيدي الحاج الطيب بن أحمد السفيناني(39) وغيرهم، وقد دخلت في حزب هذه الطريقة بباعث قوي، قضى بسلوكي على صراطها السوي، أنتج لي ذلك الباعث مصاحبتي لجدي المرحوم سيدي الحاج عبد الرحمن سكيرج في زيارة زاوية الشيخ رضي الله عنه التي بفاس، وجلوسي معه فيها عند قراءة الوظيفة في بعض الأحيان، لكونه متقلدا بعهداها، وكذلك كنت أصاحب سيدنا الوالد في حضوري معه لذلك فيها، فنشأت تجانيا قبل تلقي الإذن فيها، ولم أعرف غيرها من قبل، على حد ما قال الشاعر :

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبا خاليا فتمكنا

وكذلك كان والد(40) والدتي، فهو من خواص أحبب الشيخ الذين أخذوا عنه الإذن في طريقته مشافهة، وأول قصيدة عملتها من نظمي قصيدتي التي قلنتها في مدحه رضي الله عنه عام 1316هـ حين ورد التابوت التونسي الذي وضع على قبره في يوم مشهود، ومطلع القصيدة :

داعي الغرام ببحره ألقاني وسقى فؤادي بالرحيق القاني
فتنسمت ريح القبول بعرفه والقول يهتف من قدود البان(41)

وقد كنت نسبتها لغيري فاستحسنها من سمع بها من أقراني، ولما تحققت منهم باستحسانها قلت لهم : إنها من إنشائي وإنشادي، فنسبها بعضهم للإنتحال، وبعضهم رجع عن استحسانه لها، وقل من بقي على فكرته الأولى. وتلك عادة الله في خلقه، فإن الكثير من الناس لا ينصفون، ولا يحبون لمن هو في نظرهم أحط رتبة منهم أن يتصف بما به يمتدحون، وكنت قبل إنشائي لها استعمل لي شيخنا الشريف اليزيدي(42) المتقدم على لساني قصيدة في مدح شيخنا سيدي المامون العراقي(43) في ختمه للمختصر بالقرابين، وقصد شيخنا اليزيدي المذكور التمرين على الإنشاء والإنشاد، وقد وجدت من نفسي قابلية لذلك، ولم تقبل نفسي للإنتحال بعد ذلك، وتعلقت به في قراءة

.	26	1	(37)
.	26	1	(38)
.	42	1	(39)
.	8	1	(40)
.		33	(41)
88			21
.	33		
.	29	1	(42)
.	30	1	(43)

فن العروض عليه، فقرأت عليه طرفا من الكافي(44)، كما قرأت طرفا من الخزرجية(45) على مجيزنا الفقيه سيدي العباس بن أحمد التازي(46).

وكان له بنا مزيد اعتناء، فامتزجت شاعريته بشاعرية شيخنا اليزيدي في مزاج قريحتي، فجاءت السجية على المنهاج الذي جرت عليه إلى الآن. فأني لا أجد ما أَدافع به عني اقتحام إنشائه بعد تجاوز الأربعين التي يقول فيها القائل :

وماذا يقول الشعراء مني وقد جاوزت حد الأربعين

وإني ما أرى الشعر إلا نفثة من جني مومن، أو شيطان مرید، لا يقدر الشاعر أن يدافعه عن شغل أفكاره به، والتفكر فيه إذا خلا بنفسه، بل حتى إنه ليستيقظ ليلا وهو في مضجع نومه يتقلب جنباً لجنب، يستدعي النوم وهو لا يجيبه، لشغل فكره بما يوحيه إليه ضميره من قرص الشعر، ولا يستريح إلا إذا استقرغ مما خطر بباله، بكتبه على الوجه الذي جال مع خياله.

ولقد كنت قبل معرفتي بفن العروض، بل وقبل تحصيلي لفن النحو وغيره من الفنون التي يتجرأ بها من يريد النظم. استعملت أرجوزة في بعض الفنون التي كنت ولوعاً بها، وأنا في سن الطفولة، وهي في علم الرمل المعروف بالخط الزناتي، وهو فن له ارتباط بالأحكام النجومية، ولا أقول به الآن، فلذلك ضربت عنها صفحا. وإن كان نقلها عني بعض من له ولوع بذلك الفن، وقد علق بفكري منها بيت واحد عند التعرض لذكر المبادئ العشر، ونصه :

تعلم الأشياء جرى عند الأنام خير من الجهل ولو كانت حرام

ولقد وجدت لمثل هذا الفن حلاوة، لمناسبته لهوى النفس في تضييع العمر بلا طائل ولا جدوى تحت ذلك، وشبهه مثل فن الزرايح، وما يرجع إلى الإستطلاع على المغيبات، فإن الإستغال بذلك من شيم أهل البطالة المستحلين للخيالات الواهية، والمستحلين لأكل أموال الناس بالباطل، وهو أبعد نفعاً من فن الكيمياء، وطلب فتح الكنوز الذي قيل فيهما :

كاف الكنوز وكاف الكيمياء معا لا يوجدان فدع عن نفسك الطمعا
وقد تحدث أقوام بكونهما وما أظنهما كانا ولا وقعنا

(44)

806 780
.745 142 1 320 1
(45)

124 4 460 626
.765 1 821
31 1 (46)

وقد أفنيت بعض الأنفاس النفيسة في التحصيل على نتيجة من نتائج فن التدبير الكيماوي، فتراعى لي في مظهره الذي لا مندوحة فيه عن غش العباد، والسعي في الأرض به في إيقاد نيران الفساد، وقد حفظنا المولى من أضراره التي لا ينجو منها إلا من أراد الله به خيرا، بما ينتج من المصائب عند تعاطي عملياته، من انفجار مثل أنبوبة في وجه من يباشره، أو إصابة دخان مسموم يأتي على البصر بفقده، زيادة على ما يجره من الويلات الدنيوية والدينية، مع الوقوع في أحوال، وضياح أموال، ولقد أجاد من قال :

وقطروا أدمعا من بعد ما سهروا	قد نكس الرأس أهل الكيما خجلا
صاروا ملوكا وإن هم جربوا افتقروا	إن طالعوا كتبنا للدرس بينهم
وكم فتى منهم قد غره القمر	تعلقوا بحبال الشمس من طمع

وقد كاد أن يفتك الغاز المنفجر من أنبوبة تقطير الشعر ببعض من كان بمحضري يتناول تطيينه في تلك الأيام الخالية. وقد كان يقول لي شيخنا الحبيب الداودي : لا فائدة يكتسبها المطلع على اصطلاح علم الكيمياء وفنون السيميا إلا مجرد الوقوف على عين الحقيقة في ذلك، حتى لا يغتر بمن يدعي تحصيل منفعة عائدة عليه منه. ولو بلغ فيه الغاية القصوى، لكون ذلك من قبيل قلب الأعيان، وقلب الحقائق محال، إلا ما كان في حيز كرامة لولي مفتوح عليه، فإن ذلك لا يبعد، ولا يحتاج معه فيه إلى عقاير أو تكليس أو تقطير. ولا ينبغي للإنسان أن يخوض فيه إلا من أجل الوقوف على الحقيقة في عدم الإغترار بالمدعين، ليكون من ذلك على بال.

وقد تحققت بهذا عندما وقفت عليه بالقدم، فأعرضت عنه إعراضا، لم يدع لي فيه أغراضا. وحذرت من الخوض فيه من سمع مني النصيحة، وخاف على نفسه من الفضيحة. واشتغلت بما هو أولى، فقرأت جملة فنون، مما تقر به العيون، إلى عام 1318 هـ. فاشتغلت بتعاطي التدريس بالقرويين وغيرها بقصد النفع والإنتفاع. وما وجدت أحسن من الإشتغال بالتعليم، لأنه ينهض بمن اشتغل به من حضيض الكسل، إلى الإستزادة من العلم بالعمل، لكون تعلم العلم وتعليمه معدود من حيز الأعمال الصالحة، والتجارة الرباحة، إن لم يتوهم متعاطيه الإستغناء بما حصل لديه منه، فإنه لا يزال الرجل عالما ما طلب العلم، فإذا ظن أنه علم فقد جهل، وما أحسن الرجل يحضر في مجالس شيوخه للقراءة عليهم، ويعمر مجالس إقرائه، فهو يتعلم ويعلم الناس.

ولقد كنت أقرأ العلم بمتن من المتون المصنفة فيه، فيقصدني بعض الطلبة لأفهمه معاني ذلك المتن، فأطالعه معه، فأجد من نفسي قريحة في تفهم ذلك المتن وتفهيمه، وإذا لم أحصل معنى باب من أبوابه تجدني أتردد كثيرا على باب من يساعدني بتفهيمه لي، لأفهمه لذلك الطالب الذي ينتظرنني في الوقت المعين لإقرائني معه، فتكون مطالعتي معه في الوقت المعين سببا في حرصني على فهم ما لا أفهمه بطلبي له ممن يفهمني إياه.

وبهذه الطريقة في التعليم حصلت في مدة قريبة جملة من الفنون الصغيرة، من حساب وتوقيت ونحوهما. فقد قرأ معي شيخنا الداودي(47) منظومة الرسومي في الحساب، ومصنف القلصادي (48) في مدة وجيزة، في حين أنني أعلم الحساب لغيري بالمصنفين معاً، كما كنت أعلم بعض الطلبة مبادئ فن التوقيت بنظم المقنع لأبي عبد الله محمد بن سعيد السوسي(49)، مع رسالة المارديني(50) في الربع المجيب، وأرجوزة ابن عاشر فيه، في حال كوني أتعلم ذلك الفن على جماعة من محصليه، وقد استفدت كثيراً في هذا الفن من الفقيه سيدي محمد بن علي الأغزاوي(51)، والفقيه سيدي عبد السلام بناني(52) وغيرهما.

ومن عجيب الأمر أن هذين الفقيهين كانا يظنان أنني أريد اختبارهما بتعلمي عليهما، بما يروونه من انتفاع الطلبة على يدي بتعليمي إياهم، وكان شيخنا الداودي يسلك بي في التعليم طريقة سهلة، بحيث يقرأ معي المتن المؤلف في الفن الذي أحب الخوض فيه، مجرداً عن الشرح، ويقول : ما جعلت الشروح على المتون إلا للمراجعة، وسردنا بذلك مسرودات كثيرة من متون الفنون. حتى أنه بمحضر الفقيه العدل السيد العربي الزعري والد أبي بكر المفتي يسرد معي في نحو ساعة زمانية كل يوم نحو الخمسين بيتاً من تحفة ابن عاصم(53) قراءة تحقيق بسرد نافع، ويتذاكران في

				29	1	(47)
						(48)
	815					
891						
						:
	959	261		689	308	2
		1519				541
				10	5	14
					372	1
						(49)
						(50)
					42	1
						(51)
					42	1
						(52)
						(53)
			:		829	760
						:
	668	297	2			891
7		289				156
						247
						.45

المسائل المنوطة بالتوثيق مذاكرة أستفيد بها منهما ما يتقرر به لدي أن ذلك الفن روضة من رياض السلو لطالبه، فإن فن الوثائق له شأن، وهو فن وأي فن، وقل فيه المتقنون، وكثر فيه المدعون، حتى قال فيهم من قال :

أن غدا كل جاهل يدعيها
فغدا كل ناعق يرتعيها

فسدت خطة الوثائق لما
لم تكن غير روضة فاستبيحت

وكان السيد العربي المذكور ممن برز في هذا الفن، إلا أنه تأخر فيه بكبر السن، وعندما تستقل المذاكرة بينه وبين شيخنا الداودي نحضر الشرح للمراجعة فيتضح أمر النازلة، وينصف كل واحد منهما الآخر، وقصدهما إيقافي على عين الصواب، وإحرازي على الحظ الأوفر من معاني ذلك النصاب، فتقر عيني بما أستفيدة منهما من غير تعب فكر في فك معاني المتن، وحين تضيق العبارة في تبين شيخنا الداودي لي عن بعض المعاني ينتقل بي لموضوع آخر حتى ينفسح المجال، ويأتي المعنى عفوا من غير تضيق في المقام، وربما لا نعود للمذاكرة فيما ضاقت العبارة فيه أياما حتى أكون بنفسني معبرا عن ذلك المعنى، أو يجد مني اهتماما زائدا في تحصيله، فحينئذ يفتح باب الإعادة للمذاكرة في ذلك الموضوع بمفتاح البيان، بعد أن نكون اقتطفنا أثناء التربص من الخوض فيه من ثمرات الفنون وزهر الآداب ما فيه سلوة الأنفاس.

وقد سردت عليه كثيرا من المؤلفات النافعة في فنون شتى، ما يضيق بنا التعرض لها في هذه الحدائق، والمقصود عدم التطويل، وقد كان له اهتمام تام بأمرني، واعتناء كبير بترقيتي في مراقبي التحصيل، مع السلوك بي على أوضح سبيل، وإذا رأى مني شيئا لا يعجبه نهج بي منهج الملاطفة برفق، ويجاريني في بساط الإنبساط معي، ويباعدني عن ذلك الشيء حتى أكون بنفسني مستهجنما لما لا يعجبه، فلا أعود إلى مثله بحال، وكثيرا ما يسلك بي مسلك شيوخ التربية بأعز تلاميذهم الصادقين، فتقر عيني بما أظفر به من المحامد التي حمدت الله عليها.

ومما جرى لي معه في تهذيب الأخلاق أنه رأى مني حين اشتغلت بالتدريس بالقرويين مع طلبة العلم أوائل عام 1318 هـ ما ظهر له أنه من قبيل العجب بالنفس، بما أتزين به في حالة الدرس، وكنت لبست يوما لباسا رفيعا، والتحفت بكساء جديدة مخططة بالحريز، وصرت فيها كالمختال في رداء الخيلاء بين الأقران، وكان اليوم يوم خميس، فانتظرتني حتى أتممت الدرس، ثم سلمت عليه، ورأيته ينظر إلي هينتي بعين الإنكار شزرا، وفهمت منه بلسان الحال أنه لا ينبغي لي التزين بلباس الشهرة التي لا تليق بطالب العلم في مبادئ أمره، ثم قال لي : ألا تذهب معي لتنقح، فقلت : لا بأس بذلك، ولكن نمر على باب دارنا لأضع كسائي وألبس غيرها، فقال لي : الأولى أن ترافقتي وأنت بهذه الحالة الجميلة، وتقدم أمامي فاستحييت منه، وتبعته. فخرجنا خارج المدينة، وقصدنا المصلى، وجلسنا هناك قليلا، ثم قام بي وسرنا لوادي فاس وجلسنا قليلا بجانبه، وصرت أخذ بخاطره وهو في انقباض، ثم قمنا قاصدين للمدينة، فمررنا على سوق الخميس، وكان بالسوق ازدحام، فسرت والنفس مني في ضجر من الغبار الثائر في حال ذهابنا وإيابنا. بعدما كنت متحفظا كثيرا على تلك الكساء واللباس الذي أنا لابس، وصرت أطلب منه الإسراع بالخروج من السوق، وهو مشعر بما اعتراني من الإنقباض، في ارتفاع وانخفاض، وهو لم يلتفت لذلك، بل صار يساوم بعض البائعين، ويقف عند هذا وعند هذا، وأنا أزداد ضجرا، حتى اشتري نحو أربعة من طيور الدجاج، وحمل ذلك بنفسه، فقلت في نفسي : لا ينبغي أن يحمل ذلك وأنا معه، فقلت له : هات ذلك أحمله عنك، فقال : لا بأس، ودفعه إلي، فحملته، والله يعلم ما حصل لي من القبض، وأقول : كيف أمر في المدينة وأنا بهذه الحالة، حتى وصلنا للباب، وهناك تباع أقفاف الدجاج، فقال لي : هل اشتري قفصا لهذه الطيور ؟ فقلت : لا بأس بذلك، وقلت في نفسي : الآن نحتاج إلى من يحمل الدجاج والقفص. وأكدت عليه في شرائه، فاشتراه وحمله بنفسه بعض الخطوات، فقلت له : يا سيدي نأخذ إنسانا بأجرة يحمل عنا الدجاج والقفص ؟ فالتفت إلي بحال

قوي وقال لي : وأنت إذن ماذا تفعل ؟ ثم مد إلي القفص وقال : احمل أنت القفص مع الدجاج، فقبضت الدجاج بيد والقفص باليد الأخرى، بعد أن ضمنت أطراف الكساء تحت إبطي، وسرى في نفسي حاله .

وصرت مع ذلك صحبته كأني فاقد الشعور بما داخلني، وسرت معه داخل المدينة إلى محل سكناه، وكلما مر بأحد ممن يعرف من نفسي أنني لا أحبه أن يراني على تلك الحال وقف معه متكلماً، وأنا بجانبه كأني في عالم آخر. حتى وصلنا إلى محله، فأخذ من يدي ذلك لداخل الدار، ثم خرج وجلس معي وهو ساكت، ويرفع رأسه للنظر إلي المرة بعد المرة، ويتفرس في أحوالي، وما وقع لي من التأثير بذلك، ثم قال لي : كيف وجدك الحال الآن ؟ وماذا انتقص منك في ذهابنا ورجوعنا ؟ أأست أنت بلا كساء فلان، وبالتجمل بها وبغيرها فلان ؟ ولو نظرت إلى ما كنت عليه من الخيلاء والكبر حين كنت بالقرويين، وما كانت عليه نفسك ساعة مرافقتك قبل رجوعنا لملت نفسك، وتحققت بأن ما تتخيله مجرد أوهام، ولو نظرت إلى ما كنت عليه حالة حملك للدجاج والقفص، والناس ينظرون إليك، وهم يقولون : هكذا يكون طلبة العلم في حمل متاعهم بأنفسهم متجربين عن الكبر، وما صرت فيه من الجلالة والتعظيم في قلوبهم وبين أعينهم ما احتجت إلى أحد من اليوم لحمل متاعك، بل تحمله بطيب نفس، غير مبال لما تترادف به عليك الأوهام في حال تجملك باللباس الفاخر، وما داخلك من كبر بها في مقاصدك الباطنة والظاهرة، والمرء بقدر ما يحسنه بين أبناء جنسه، لا على قدر لبسه في قيمة نفسه.

فحين سمعت منه هذا الكلام انجلى الإنقباض عني، ونظرت إلى نفسي وهي تنتعش شيئاً فشيئاً باستحسان ما فعله بي، فجازيته بالدعاء وذهبت إلى محلي، وأنا أراجع نفسي فيما كانت عليه قبل تلك الساعة، فتحققت بما كانت فيه من التكبر، ونخوة الصدر، فملت نفسي بنفسي. وفي حال رجوعي تلاقيت مع بعض الأفاضل فحبس بيدي وقبلني بين عيني وقال : لله أبوك، هكذا يكون العلماء، فقد رأيتك حاملاً متاعك والنور محيط بك، وبك يحق الإقتداء، فزادني هذا الفاضل بكلامه اطمئناناً.

ومن هذا اليوم قلما احتجت إلى غيري في حمل متاعي، وزال عني الوهم الذي كان يثير في وجهي غبار التكبر، والفخفة التي كانت قد استولت علي، وكنت أظن أن الناس كلهم ينظرون إلي، فأتحمل مشقة التصنع في اللباس والكلام والمشى في الطريق، والجلوس بمجلس الدرس، والدخول في المجمع، بما كنت معه في نوع من العذاب، فأراحني الله من ذلك بنظرته. وقد كان

شيخنا المذكور عارفا بجملة من الفنون الرياضية(54)، وقد تلقيت عنه جلها، وطالع معي كثيرا من الكتب المؤلفة فيها، وأخذت عنه بالإذن العام والخاص، جملة وافرة من الخواص مما شاهدت نفعه، حتى في فن الصناعة.

وقد كان له بهذه الفنون ولوع، خصوصا أيام المقدس مولانا الحسن سلطان المغرب، لكونه كان ولوعا بهذه الفنون، والناس من عادتهم الخوض فيما يقربهم من الملوك، خصوصا فيما كان لهم فيه ولوع، فكان الفقيه مزور(55) والسيد البشير المقربين لحضرتة الشريفة يتوددان لشيخنا المذكور، فيستقيدان منه ما كانا يتقربان به لتلك الحضرة، ولقد حقق لي شيخنا أن فن الصناعة لا طائل تحته بالعملية الصناعية، وإنما العملية بالسر، وأن الكتب المؤلفة فيه لا تخلو عن فائدة

(54)

(55)

1302

1286

1944

1376

130

1149

192

.209

2

100

19

أدبية، إن لم تكن ذهبية، كما قال أدباء الأندلس في شذور الذهب لابن أرفع رأسه الأندلسي (56)، فقد قالوا فيها : إن فاتنا ذهبه لم يفتنا أدبه، وهي من جملة المتون التي سردها عليه، وهي قصائد عجيبة مرتبة على حروف المعجم، وقد طالعت شرح الجلدي (57) عليها، وبعض مؤلفات جابر بن حيان (58) مع جملة من الكتب بخط الفقيه البركة الشريف سيدي العربي ابن أحمد الفلاقي، عند ولده محل الأخ السمي السامي سيدي أحمد، فقد أفنيت معه أوقاتا لها حصة من الثمن في مطالعة هذه الكتب، وله اعتناء كبير في فك رموز الشذور وغيرها حسبما يقتضيه فهمه، وإني لأتعجب من هذا الأخ في استنبطاه لمعاني الفن من هذه المنظومة وغيرها، ويجزم ويقطع بأن ما فهمه هو المقصود لناظم القصائد المشحونة بالرموز المنوطة بهذا الفن. وعهدي به لم يرجع عن فكرته إلى فكرتي من أنه لا يحصل على نتيجة هذا الفن إلا الأولياء. وهم فيه من الزاهدين، ولا يخلو المتظاهر بمعرفة هذا الفن من احتيال باختيال، في اختلاس الأموال، فليحذر العاقل من تصديقه.

ولقد كان سمع بي سليل الحضرة المولوية الشريف مولاي عمر (59) بن المقدس مولانا الحسن، فعمل وسائل كثيرة في اجتماعي به، وكنت نافرا من مخالطة ذوي الكلمة، أو من انحاش إليها، ولكن احتال علي بأن طلب مني أن أعلمه الحساب وبعض الفنون، وبعد أيام كان في خلالها يتودد إلي بما أمكنه، فطلب مني أن أكشف له عن حقيقة علم الأوفاق وعلم الصنعة، ووجدته في تلهف كبير للظفر بسر من أسرار هذين الفنين، ونحوهما من فنون السيميا، فجاريته لأخلصه من قيود أوهامه، أو أخلص نفسي بالفرار من قدامه، فصرت أنفي صحة التصرف بالأوفاق، وأعرب له بالأدلة القاطعة على عدم قلب الأعيان باستحالة قلب الحقائق، فلم يزد ذلك مني إلا رغبة، فقلت له : إن كان ولابد فتعلم العلم، والله يأتيك بالسر إن كان لك حظ منه، فقال : هذا مرادي، فأطلعت على شرحي لمنظومة

(56)

:

515 593 :

481

581 1 542
.26 5 91 2

(57)

:

241 230 750 762
5 5 130 3
.1811 1339 1707

200

500

(58)

103 2 664
.249 : 1

(59)

1324 4
.502-497 5

وقد قضى علي ولوعي بهذه الفنون منذ كنت صبيا بالبحث عن الكتب الموضوعه فيها. وأجد من نفسي تلهفا كبيرا إذا سمعت بكتاب مؤلف فيها حتى أقف عليه، فطالعت تأليف سيدي عبد الرحمان الشامي(63) في الوفق الخمس خالي الوسط. وأطلعني شيخنا المذكور على السر الذي رمز عليه في أول ذلك الكتاب، بعد أن حصلت على فنه بقراءتي عليه وعلى غيره بذلك الكتاب. وبمؤلف المرجاني وشرحه للشيخ سيدي عبد الرحمان الفاسي، وكتاب الحكيم سحنون، وغيرهم ممن ألفوا في هذا الفن وبينوا قواعده. كما قرأت شرح مثلث الإمام الغزالي للعلامة الفشتالي(64)، والحكيم أدراق(65)، ولم يسكن قلبي حتى اطلعت على الحروف الفعلية، وأعرضت عن الخوض في هذه الفنون بالكلية، حين تقلدت بالطريقة المحمدية التجانية(66)، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك، وقد كنت مقصودا للناس منذ اشتغلت بهذه الفنون لكتب الحروز، حتى أن بعض أشياخي كانوا يطلبون مني الكتب لهم في بعض الأغراض فيجدون بركة ذلك.

وممن كان له اعتقاد في جانبي بتحقيق التصرف بالأسماء شيخنا الولي الصالح سيدي إدريس عمور(67)، وشيخنا العلامة سيدي إبراهيم بن عمر اليزيدي(68)،

					160	1	(63)
							(64)
							1208
372							
	115	3				1484	
			.121	3		157	(65)
	:						
			...				
28							
						1159	
	34	400	5				
		2			290	1	
						.181	4
							(66)
			:				
						...	
					29	1	(67)
					29	1	(68)

وشيخنا السيد أبو بكر بن العربي بناني(69)، وغيرهم رحمة الله عليهم. وقد وجدت راحة كبيرة في ترك الخوض في كتب الحروز، لكون متعاطي ذلك يصاب غالبا في نفسه وعقله وماله، فتضييق معيشتهم، وتسوء أخلاقه، وتسول له نفسه ما تسوله إن تم له التصرف بالتظاهر بالدعاوي الكاذبة، ويكون على خطر دائما. وقل من سلم في دينه ودينياه، وقد تحققت بهذا كله بعد بلوغي، أما قبل البلوغ فكنت على أحوال. فقبل سنة 1309هـ لم أتذكر الآن شيئا مما كنت عليه إلا مجرد اشتغالي بنفسي بالذهاب للمكتب، وانفرادي في محلي بكتب بعض التقاييد، وكان فيما قبل ذلك الغالب من أحوالي الجذب، ولا أتذكر شيئا من لعبي مع الصبيان، إلا أنني كنت محافظا على الصلاة قبل تكليفي محافظة أكثر مما أنا عليه الآن. وقد خطر ببالي في هذه السويعة شيء من ذلك لا فائدة في ذكره.

وقد نشأت بحمد الله أيام صباي حابسا لنفسي مما كان يخوض فيه أقراني بإساءة الأدب على من هو أكبر منهم، خصوصا المجاذيب، فإني كنت لا أقرب ساحتهم، ولا أخاطبهم بما فيه تغيير خاطرهم، وإني أتذكر الآن أن بعض المجاذيب خاطبني بكلام اقشعر منه جلدي، وكان برافقتي الأخ سيدي محمد، فرأى تغيير حالي مما داخلني من ذلك، فقال لي : أفيدك بفائدة تزيل عنك اهتمامك بما خاطبك به هذا المجذوب، فتعلقت به فقال : أريد أن تخبر الوالدة وتطلب منها الدعاء بسلامتك، فإنك بحول الله لا تخشى سوءا. فكان مفيدا لي بهذه الفائدة التي اعتمدت عليها، وسارعت إليها، فنلت من والدي فوق ما أتمناه من دعائها الذي لا شك عندي في قبوله، والله الحمد.

وكان من طبعي مصاحبتي دائما لمن هو أكبر مني سنا، ولم أصاحب من هو من أقراني إلا القليل، أما من هو أصغر مني فلا أرافقه، ولا أصافيه بمودة، حرصا مني على المروءة التي اعتادها مني أهل حومتي، حتى أنني سمعت من سيدنا الوالد يمينا بأنه يطمئن صدره بالصلاة على سراويلي بما يتحققه من عفتي، والله الحمد، وهذا كله من باب التحدث بمنن الله على عبده، ليكون شاكرا لأنعمه.

وأول ما تعاطيته بين الطلبة معاونتي لشيخنا الداودي في عملية التركات بقسمها وكتب وثيقة الفريضة من عام 1315هـ، فكنت أستعين بأجرة ذلك على بعض الضروريات، وكان يقصدني العدول لذلك، منهم البركة سيدي الطيب أخو شيخنا سيدي محمد – فتحا – بن قاسم القادري، والعدل الشريف سيدي الغالي البكر اوي(70) وغيرهما، حتى اشتهرت بفاس بكتب الفرائض، ودرسي لها مع الطلبة الذين كانوا يتواردون علي، متوددين إلي بما في طوقهم، فانتفع بي منهم جماعة قبل انخراطي في سلك طبقات المدرسين، وبعد اشتغالي بالتدريس، وشاهد ذلك قاضي الحضرة الفاسية، ذو الأخلاق المرضية، السيد عبد الله بن خضراء السلاوي(71)، فسأل عني والدي وقال له : إني لم أرى اسمه في زمام المدرسين الذين يأخذون المرتب السنوي على ما هم مشغولون به من التدريس. فأخبره بأني لا تميل نفسي للتملق على الأعتاب في طلب مثل هذا الأمر، فقال القاضي رحمه الله : قد ألحقته بيدي في زمام هذه السنة، وهي سنة 1320هـ. قال : ولو وجدته في زمامهم لنقلته إلى طبقة أخرى، ولكن بحول

		42	1	(69)
				(70)
1301	15			1276
.119				
		39	1	(71)

الله الخير أمام، فأخبرني بذلك سيدنا الوالد، فكان ذلك سببا في محبتي في القاضي المذكور، فمدحته بقصائد مهمة(72).

وطلبت منه الإجازة بالحديث المسلسل (بأني أحبك) حيث وقفت عليه في شرحه للبيقونية بروايته عن إمام الحرم المكي الشيخ دحلان(73)، وكررت عليه في الطلب حتى تحقق بصدق طلبي منه، وتم حبه لي في جانبي ليكون في المحبة صادقا، فقال لي يوما تحت الثريا بجامع القرويين أو بالقرب منها حين سلمت عليه هناك : (إني أحبك) ففرحت كثيرا بتلقي عنه هذا الحديث بسنده.

وقد حضرت مجلس درسه بظهر الصومعة بالقرويين بين العشاءين في إقرائه للهمزية للإمام البوصيري، فشاهدت الأنوار المشرقة في مجلسه تبهر العقول، ورأيت أبهة العلم التي بها في درسه يجول، فازددت فيه من غير شعوره محبة.

وكنت أيام طلبي للعلم على جانب كبير من تعظيم شيوخه، وتعظيم كل من رأيت يدرس العلم بالقرويين وغيرها. وأقبل يد كل من تلاقيت معه، حتى كان يظن معضمهم أن ذلك لغرض مني عرض لي عنده، وما هو إلا لتعظيم العلم وذويه، وأجد من نفسي ميلانا كبيرا للصوفية مع مطالعتي لكتبهم.

(72)

:

:

:

:

1231

(73)

:

1304

1

193

390

.990

129

وكتبت بيدي نسخة من شرح الشطيبي(74) على أرجوزة ابن البناء(75) الموسومة (بالمباحث الأصلية). وطالعت الفتوحات المكية للشيخ الأكبر مرارا، وغيرها من كتبه وكتب غيره، فنشأت محبا لهذا الجانب، وتعشقت كتبه وكتب القطب الشعراني، وامتزج حبي في هذه الطائفة، مع حبي في الطريقة التجانية، ولا أحب الخروج عن مذهبهم بحال، ولقد سكن قلبي بظفري بمقدمة ابن خلدون(76)، فكانت لي مثل الطابع الذي تطبع به المسكوكات الذهبية، بما اشتملت عليه من تحقيق العلوم والفنون التي خضت فيها، فكانت عندي خاتمة الدراية، فلم ألتفت بعدها إلى الكتب المؤلفة في تلك الفنون، واكتفيت بما علق بفكري من القواعد والضوابط الفنية، وعذرت من أعرض من أول وهلة عن الخوض في تلك الفنون.

وقد تذكرت أنني سألت الكتبيين بفاس عن شمس المعارف للبوني(77) بقصد شرائه، حتى سألت الشريف سيدي عمر بن شيخنا سيدي أحمد بن الخياط، وأنا صغير السن، فقال لي : مالك ولهذا الكتاب ؟ وهو شمس المتألف، فصرت أتعوذ بالله من جوابه، وذلك على قدر مبلغ فهمه من ذلك الفن المؤلف فيه ذلك الكتاب. ولقد صدق باعتبار من حمل ما اشتمل عليه على ظاهره من غير

				(74)	
				:	
2		963		258	
		.292	6		(75)
		721	654		
				:	
279	2	759	216	623	
		26			
384-375	1		99	148	
278	1		41		
			.222	1	(76)
				:	
427	410		808		
	414	4	18		
		.230	3	145	4
				622	(77)
				:	
	1062		90 : 1	.174	1

اطلاعه على قواعد الفن، وهم جهال كثيرون، ولذلك قال الناصحون : علم الكنوز والحروز، من تركهم يفوز.

وقد تضرر كثير من المتعاطين لهذا الفن ممن لا إذن لهم، ولا معرفة بالفن، فكان نتيجة خوضهم فيه الحصول على التلبيس والتقليس، والحمق بين الخلق، ولذلك ينبغي الإعراض عن الخوض فيه، سيما في حق من يتعاطاه بقصد مذموم شرعا، بوضع الأسماء الشريفة، والآيات المنيفة، في مواضيع لا ينبغي استعمالها فيها، بالتوجيه لقضاء أغراض بها محرمة ونحو ذلك. ولقد حفظني الله منذ اشتغلت بهذا الفن من التوجه فيه لشيء من ذلك والله الحمد، حتى أعرضت عن الخوض فيه بالكلية، إلا ما كان في كتب بعض ما له خاصية مما صار من قبيل استعمال الدواء، إن توقف الغرض عليه مما ليس بمذموم شرعا.

وقد اشتغلت عن ذلك بطلب العلم، وبأذكار الطريقة التجانية اللازمة فيها وغير اللازمة، مع تعميم جل الأوقات بالتدريس، وكتب ما ولعت به من التأليف، وأول كتاب ألفته في هذه الطريقة كتابي المسمى بالكوكب الوهاج عام 1318هـ، وفي عام 1321هـ ألفت كتابي منهل الورود الصافي، والهدى من فتح الكافي، في علمي العروض والقوافي، وصرفت الوجهة مني فيما يليق به إلي العارف بالله سيدي ومولاي أحمد العبدلاوي بعد ملازمتي له في الأوقات التي أجد الفراغ فيها منذ أخذت عنه الطريقة الأحمدية، فظفرت بحمد الله منه بأسرار عالية، ومعارف غالية. وقد استودعت من ذلك بعض مؤلفاتي في الطريقة التجانية وفي غير الطريقة، مما يبرهن على أنه من أهل الولاية الخاصة الذين خصهم المولى بالخصائص الكبرى.

وقد أطلعه الأخ ولده سيدي محمد العبدلاوي (78) على تألفي كشف الحجاب حين كان مشتغلا بطبعه عام 1325هـ بالمطبعة الأولى، فاستحسنه غاية، وحين حضرت عنده بداره بشرني ببشارة كبرى وقال لي : احمد الله على ما أنعم به عليك، وإنك والله خليفة عن الشيخ رضي الله عنه، ونائب عنه فيما أكرمك الله به، وإنك لخارج عن دائرة علماء القرويين، فإني لا أقول بهم لجمودهم على الظاهر، ونظرهم لغيرهم بعين الإزدراء، وعدم تسليمهم للأولياء، ثم قال لي : إن كتابك هذا له شأن، وهو مقبول مقبول، وإن كان فيه شيء مما لا بأس به في صنعة التأليف، فحمدت الله على هذه البشارة.

وقد استحسن ذلك أيضا شيخنا الداودي، وكنت إذا تغيبت عنه، وسألني أين كنت ؟ وأخبرته بأني كنت عند شيخنا العارف المذكور يظهر لي نشاطا وانسباطا، وإلا انقبض انقباضا، لا يسعني معه إلا الأخذ بخاطره. وقد كان سيدنا الوالد مطمئن الصدر من جهتي بملازمتي لشيخنا الداودي المذكور، مع المبيت معه الليالي العديدة، ولا يتشوش من عدم مبيتي في الدار التي بها سيدنا الوالد تحقفا منه والحمد لله بنزاهتي، وعدم المبيت في محل لا ينبغي المبيت به. كما أنه كان مسرورا كثيرا بملازمتي لمولاي أحمد العبدلاوي، وكان لوالدي في جانب هذا السيد كبير اعتقاد، ويرى من إقباله علي ما كان يزداد به فرحا ومسرة. فيقول لوالدتي : إن ولدي أحمد هو دعوتي التي دعوتها عند شربي من ماء زمزم، وأخذي بشباك ضريح النبي (ﷺ)، وإني لأرى سيدنا الوالد في بعض الأحيان مباششا في وجهي حين يبلغني عنه أنه خاصم الإخوة في ترك القيام بما توقفت عليه خدمة الدار، ويقول لي : لا أريد منك أنت إلا الإشتغال بالقراءة، وأن الخصام مع إخوتك لا معك.

ومع ذلك فقد كنت أنهض بقدر طاقتي في خدمة الدار بما أدخل به السرور على الإخوة، وسيدتنا الوالدة واجدة تدعو لي بما نرجو الله أن يحققه لي في الدارين، ولقد كانت سيدتنا الوالدة قبل تزوجي مهتمة بأمرى، حيث لم ترى منى التفاتا إلى طلب التزوج، بما كان قلبي مشغولا به، مشغولا في طلب العلم وتحصيله ونشره، وطلبت منى مرارا بأن أتزوج، وأنا أتعلل لها بما أفرغه في قالب الأعدار المقبولة، حتى حرصت علي برغبة أكيدة من عام 1318 هـ إلى عام 1320 هـ، فخطبت لي ابنة صهرنا السيد المكي بن أحمد بن شقرون (79)، بعد أن التزمت لي سيدتنا الوالدة بمسامحتي فيما عسى أن يصدر من زوجتي، أو منى من سوء الأدب معها، والتزم سيدنا الوالد بالمسامحة كذلك، فتزوجت بها، فبنيت بها ليلة الإثنين سادس عشر شعبان من العام المذكور (80)، وكان متكفلا بجميع الضروريات وكلف المؤونة بما لم يحصل لي معه أدنى اشتغال بال. وإن زوجتي والله الحمد لمن الصالحات ببرورها بي وبوالدي، فكانت نتيجة دعائي الذي كنت أدعو به من قوله تعالى: "ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة" (81)، وهي الحسنة في قول بعض المفسرين.

وفي ليلة الثلاثاء خامس عشر شهر ربيع النبوي من عام 1322 هـ ازداد لي معها ولدي عبد الكريم، وقد صادفت ولادته شفائي من مرض لازمت فيه الفراش نحو ثلاثة أشهر غبت فيها عن حسي، فاخترت تسميته سيدنا الوالد بهذا الإسم إشعارا بشكر المولى الذي تكرم بعافيتي من ذلك المرض (82). وتبعنا لخطري في تسميته به محبة في شخي العلامة الرئيس سيدي الحاج عبد الكريم بنيس، فقد رجوت بموافقة إسمه لإسمه أن يكون الولد مثله في أقواله وأفعاله وأحواله، وقد كنت تعرفت به من حين عثرت على تقريره (83) (لحل الأقفال في شرح جوهرة الكمال) لمفيدنا العلامة

				(79)
		1280		
			.190	
	25			(80)
:	:		1320	16
			.201	(81)
	:			(82)
			270	
				(83)
:	:			

السيد الحاج محمد فتاح كنون(84)، وكان الوساطة في التعرف به الرجل الصالح السيد المختار الزيزي، حيث أطلعه أيضا على تقريري لذلك التأليف فاستحسنه(85)، وقد استقبلت المحبة بيننا حتى تمكنت بين الجانبين، وكانت المودة في عنصر التمكن وقت ازدياد ولدي المذكور، فسميته بذلك الإسم على الوجه المذكور، وقد استعدت من شيخنا بنيس المذكور فوائد لا تحصى، واقتبست من أنواره ما نفر عني ظلمة الجهل المركب، وركبت به من بحر العلم أحسن مركب، وجرى مني حبه مجرى الدم في الجسم، بل سرى وده مني مسرى الروح في الجسد إلى الآن وحتى الآن.

مطالعة كتب التصوف مع الشيخ بنيس

وقد طالع معي من كتب التصوف والكلام ما زال به عني اضطراب الأوهام، خصوصا ما أقف عليه في الفتوحات المكية، والإنسان الكامل(86)، والفصوص ونحو ذلك، فنلت من فتوحاته ما اتضحت لي به عبارة الشيخ الأكبر في سائر كتبه التي عثرت عليها، وقد سبقت لي نظرة العارف بالله سيدي ومولاي أحمد العبدلاوي في تمكينه لي نسخة الفتوحات المذكورة بيده فأقرؤها بحضرتة، وقد أخبرني رضي الله عنه بأنه كان يحفظها ويستحضر ما اشتملت عليه من المعارف، ويحثني على مطالعتها، فحصلت لي محبة خصوصية في الشيخ الأكبر، وكلفت بكتبه، حتى أنني كنت إذا سمعت بكتاب منها لا أملكه أبحث عنه إلى أن أظفر به، وربما طالعت منها ما لا أملكه منها في مرائي منامية، ما أعده من قبيل تصرف الهمة بالتحصيل على المطلوب من حضرات ذوي الفتح، وأول ارتباط وثيق وقع في المحبة بيني وبين شيخنا بنيس بعد مطالعتي لتقريظه المشار له، واطلاعي على مختصره(87) في فقه الطريق التجانية،

(84) 1 26

(85)

:

(86)

:

610

832

50 4

181

.728

.312-310 3

(87)

28

فقد ألفه بعد تقيده بحبلها، ومطالعتة لكتاب بغية الولي الصالح السيد العربي بن السائح(88)، وكان تأليفه له كالمباسط به لحضرة المقدم أبي الفتح السيد الحاج محمد كنون المذكور، وقد استحسنته حين اطلع عليه، وحصل لي اعتناء به فشرحته بكتابي الكوكب الوهاج، فكان ابن فكري، فتزوج ببكر فكره، فتولد منهما نفع المنصفين من الإخوان في الطريقة، وتم بيننا التعارف الذي كان لله بالله في الله، والله الحمد.

وقد اطلعت على كثير من نظمه وتقايبده النفيسة، فجمعت من ذلك ديوانا سميته : بالدر النفيس من نظم العلامة الرئيس، سيدي الحاج عبد الكريم بنيس، وإلى الآن لم يتم تخريجه(89)، كما شرعت في شرح نظمه لحكم ابن عطاء الله، وإلى الآن لم يكمل(90)، أتم الله ذلك على أحسن ما يكون، ملحوظا بعين القبول، وهو من أجل الشيوخ الذين لازمتهم، وكنت أتمنى أن لو قرأت على كل من كان موجودا وقت طلبي للعلم، حتى إني كنت حضرت مجلس العلامة سيدي جعفر الكتاني(91) بقصد الأخذ عنه تبركا بعلومه، فصرت أعده من شيوخه كما قال الشيخ سيدي عبد العزيز الديري(92) رضي الله عنه.

وكل من أخذت عنه علما أو أدبا فهو إمامي حتما

				308	1	(88)
						(89)
		40	1			(90)
15	:	46			1323	
		666				
		1246				(91)
					1323	
		300				
		1708	433			119
		1545		814	367	2
		122	2	345	67	
						(92)
	:	694			612	
		293	202	1		
			13	4		
					75 : 5	

ولقد اهتمت كثيرا بالأخذ عن بعض الشيوخ الذين لم أدرك منهم مجلس علم، ولم أجد لذلك سبيلا. منهم مجيزنا العلامة آخر قضاة العدل سيدي حميد بناني(93)، فحضرت مجلس تفسيره للقرآن بصحن القرويين في رؤيا منامية، وقد أخبرت بها محبنا محل الأخ سيدي علي بن الفاطمي الهرايبي (94)، وكان من خواصه، وتعلقت به في إجازتي، فجمعني به وأفادني بما لم يكن لي بحسبان، وزودني من معارفه ما اطمأن به صدري في السر والإعلان، فأذن لي في الطريقة التجانية وتلقينها، والإجازة فيها بالإذن المطلق والمقيد، وكتب لي بذلك إجازته الأخ المذكور، وأمضى عليها شيخنا المذكور بعلامته، كما كتب لي الإجازة في معلوماته، وما اشتملت عليه فهرسته، وتلقيت عنه الحديث المسلسل بيوم عاشوراء، وطابت بمحبتني له نفسي، بين أبناء جنسي.

إجازة الشيخ ماء العينين(95)

كما أنني حصلت على الإجازة من العلامة الشهير سيدي ماء العينين، بواسطة محل الأخ العلامة نقيب الأشراف العلويين مولاي الكبير عبد الرحمن بن زيدان، فكتبها لي بخطه طبق اقتراحي عليه، وأمضى عليها باسمه بخطه، بعد أن عملت قصيدة في مدحه، وقعت منه موقعا، وأخذت بلب من سمع بها بمحضره من الجلة، مطلعها :

وفي طريق سواه ما أرى قدمي(96)

لفرط حبي أرى حبي أراق دمي

الشيخ أحمد الشمس(97)

وقد كاد الشيخ أحمد الشمس أن يطير فرحا بها، وكانت سببا في ربط حبل الحب بيننا، وكان مخلصا في المودة حتى استولى على قلبي، فكنت ولا زلت من المخلصين في محبته، ولقد كان معجبا بشعري غاية الإعجاب، ولقد قال لي حين اطلع على تخميسي للبردة : لقد فضحت هذا العاشق، وجرت بيننا مذكرات، واجتمعنا بحضرتة بجماعة من العلماء والأدباء من أهل شنجيط وغيرهم، ممن استقدنا منهم واستفادوا منا بما نرجو من الله الجزاء الأوفى من الأجر عليه.

		31	1	(93)
1337	.			(94)
		1277		
.112				
	.	28	1	(95)
	.103			(96)
	.	28	1	(97)

سبب استعمال تخميس البردة (98)

ومن البواعث عن استعماله لذلك التخميس تعلقي بالجناب الأحمدي بعد شفائي من ذلك المرض الذي تقدمت الإشارة إليه، وكنت حالته نظرت إلى ما نظمته من الأمداح، فلم أتذكر من نظمي قصيدة لي في هذا الجناب، فتأسفت كثيرا وخفت أن أموت ولم أراحم مداح جنابه، وأضمرت في قلبي إن عافاني الله أعمل نسيجا على منوال الشعراء، عسى أن يحفني منه برداء الرضاء، وحين عوفيت من ذلك استعملت المعشرات (99) التي مدحت بها هذا الجناب، وجعلت التخميس المذكور تبركا بالبردة التي عمت بركتها القاصي والداني، وقد أجازني المصطفى (ﷺ) على ذلك بما شملني خيره حسا ومعنى. فكان من نتائج ذلك رؤيتي له في مرائي متعددة، وبشرني بما أحيا مهجتي به من صفاء محبته، وما قابلني به من عظيم المودة والله الحمد.

السفر إلى مكناس

بدعوة من نقيب الأشراف مولاي عبد الرحمن بن زيدان (100)

ولقد كنت ملازما للإقامة بفاس، لم أخرج منها إلى بلدة سواها، لاشتغالي بطلب العلم وتحصيله، إلى أن استدعاني إلى مكناسة الزيتون نقيب الأشراف بها السيد الكبير مولانا عبد الرحمن بن زيدان، زاد الله في معناه، بعد أن أقام أفراح عرسه الميمون، وأكد علي بالحضور إلى محله المصون، ووجه إلي من حملني إليه من خدام جنابه في شهر ربيع النبوي عام 1325هـ، وقد وجدت في انتظار قديمي عنده بروضة الأنيق جماعة من علماء مكناسة الزيتون، فتلقاني الجميع بالترحاب من الباب، وأقمت عنده أياما، فكان من جملة من تعرفت به من الجلة هناك العلامة القاضي سيدي محمد بن عبد السلام الطاهري (101)، والفقهاء السيد محمد فتاح السوسي (102)، والفقهاء السيد محمد

	84	1	:	(98)
			:	(99)
			16	(100)
			1	(101)
:				
	.29		299	4
			1285	(102)
:	1359		1346	
		1369	3	
	104	58		
		2		
			.161	

بن عبد القادر العرايشي(103)، والكاتب البارع السيد الغالي بن أبي بكر السننيسي(104) وغيرهم، وكانت أيام إقامتنا لديه أيام سرور ومواسم خيرات، مشمولة بكمال البرور.

الذهاب إلى زرهون

وقد اقترح علي الذهاب إلى زرهون بقصد التفسح، ومشاهدة آثار الفتح بالضريح الإدريسي وزيارته، فأقمنا به نحو اليومين، وتعرفت هناك ببعض الجلة، منهم العلامة الشريف سيدي محمد بن أحمد العلوي(105)، وشاهدنا بمرورنا آثار المدينة القديمة الشهيرة بقصر فرعون، وفي الحقيقة أطلال مدينة وليلي الكبيرة، وبعد رجوعنا لمكناس ومبارحتنا لمدينة فاس ألفت توييفا سميته : بالرحلة الزيدانية، وقد ذكرت فيه جل ما شاهدته في زيارتي هذه مدة إقامتي عنده ذهابا وإيابا، ولازالت إلى الآن بمببضتها، راجيا تخريجها ليدوم بها تذكار إكرامه، وذلك من قبيل شكر المنعمين.

(103)

.7

(104)

	:	:		
5	1338	17	60	508
		.97-91	2	
			1288	(105)
			1336	
	1344		1346	
	1350	:	1359	
	1367		28	
		154-147	2	
				141
		.250-238	227	
			32	

السفر إلى طنجة

ثم بعد ذلك تشوقت للسفر، فسافرت صحبة سيدنا الوالد لصلة الرحم مع الأخ سيدي محمد(106)، وابن العم الفقيه السيد الزبير(107) بطنجة وتطوان، وبعد قضاء الغرض ورجوعنا لفاص، وإقامتنا بها أياما رجعت إلى طنجة، وتزوجت بابنة ابن العم المذكور(108) عام 1328هـ، واستوطنت بطنجة فرارا من الفتن التي كانت بفاص ونواحيها مشتعلة، والقلوب بها مشتغلة، وفي هذه السنة أكد علي ابن العم والأخ المذكور في اندراجي في سلك المستخدمين مع المخزن، وتوسطا لي في الخدمة بدار النيابة هناك بصفة كاتب مع النائب المخزني(109) بها، وهناك شاهدت ما لم يخطر لي ببال، وتغير مني الحال، فلم يمكني البقاء في تلك الخدمة، فانتقلت منها إلى رفقة الأخ بصفة كوني كاتباً ثانيا بإدارة المراقبة(110) هناك، ثم أظلم الجو في نظري، واستعملت ما قدرت عليه في البعد عنهم بما في طوقي.

السفر إلى وهران

وقد صادف الحال استدعاء المحب الصادق مولاي الحبيب بن عبد المالك(111) من حاضرة وهران إلي، وأكد علي في زيارته، فاستعملت اللازم وسافرت إلى وهران، وذلك في 15 جمادى الثانية عام 1329هـ، وكان ذلك أول ركوبي بالبحر، واجتمعت بالشريف المذكور مع جماعة من الأفاضل، وقد بسطت القول حول ذلك في رحلتي الحبيبية إلى أن رجعت لفاص، وبلغني قبل الوصول

				33	1	(106)		
						(107)		
		38	1			(108)		
				16	1	(109)		
					16	1	(110)	
						16	1	(111)

:

:

1359	11						
.4							
				16	1		

إليها ازدياد ولدي سيدي محمد(112) مع ابنة العم بتطوان، فلم أرفع لذلك رأسا، لعزمي على عدم الرجوع إلى طنجة، ولقد كنت فارقت السيدة شقرونة(113)، والله يعلم ما قاسيت بعدها مع ابنة العم من امتحان، حتى كنت أرى أن ذلك مجازاة لكفر نعمة برورها بي، وقد استعملت أبياتا حين كنت بعيدا عن مسقط الرأس، ولا بأس بذكرها في هذا المحل حيث خطرت بالبال، نصها :

أمولاي من أشكو إليه نوائي	إذا كان من أشكو إليه مطالبي
يهون عليه أن أهان وإن لي	وحقك نفسا فوق كل مطالبي
ومن ذا الذي يرضى وهمته علت	يصير بعد العز مهضوم جانب
أمولاي إن الموت أهون للفتى	من الهون بعد العز بين الأقارب
تغربت عن ناس أنست بأنسهم	وأنسهم قد كان بين الأناس بي
وأصبحت فيمن لا يبالون بي ولا	يراعون حقي في جميع المذاهب
أمولاي والدهر الخئون بكيدده	رمانني بالسهم الذي هو صائبني
وإني على ضعفي تحملت في النوى شجوننا بها أصبحت لعبة لاعب	
وما كان يا مولاي ظني هكذا	ترى حسناتي كلها من مثالبي
أعاتب نفسي في الذي قد جنته لي	وأشفق من حالي بعد مصائبني
أمولاي والأعداء تشمت بي لدى	سماح الذي كابدته من نوائب
تراني أكف العين من جريانها	وفي خلواتي لا أرى غير ناحب
وأحبس زفرتي إذا ما تصاعدت	وأخفي أنيني عند رؤية صاحب
أسابقه بالبشر والقلب عابس	مخافة أن يرثي لحالي مراقبي
أمولاي ها شكواي فيك أثتها	لعلي أن أحظى بنيل مطالبي
وغاية مطلوبي وأكمل بغيتي	شهودي قبل الموت جمع الحبايب

(112)

1911 4 1329 7

85

(113)

1397 - 1979

وخمست ثلاثة أبيات وقفت عليها في ذلك الحين، أنشدت بين يدي الحارث ابن أسد المحاسي (114) شيخ الجنيد، فقام يتواجد وبكى حتى رحمه كل من حضره، وقد وافقت حالي فقلت :

مالكي من دون شك رق للرق بفك
من مصاب وتشك
أنا في الغربية أبكي ما بكت عين غريب
صرت في أسر العلوج بعد ما كان عروجي
في أناسي للبروج
لم أكن يوم خروجي من بلاد بمصيب
كنت في ناسي بنسك مالكا حظوة ملك
لم أخلف عيشة ضنك
عجبا لي ولتركي وطنا فيه حبيبي

وبعد رجوعي لفاس انجلت عني الغوم، وردت بضاعتي إلي، وفارقت ابنة العم إجابة لطلب والدها مني ذلك (115).

ورود سيدنا محمود لفاس (116)

وفي نفس العام المذكور، ورد لفاس سيدنا محمود بن المولى البشير بن الحبيب بن الختم التجاني رضي الله عنه، وعزم على التجول في إيالة المغرب والتوجه إلى تارودانت (117) بالمرور على الحمراء مراكش، فطلب مني مصاحبته في هذه السفرة، فلم أجد بدا من مساعدته، فسافرت معه حتى وصلنا إلى رباط الفتح، وأقمت معه نحو الأربعة أشهر، فرأيت الحركة ثقيلة، والغيبة طويلة، فرجعت إلى فاس بإذنه، بعد أن تلاقيت مع جماعة من الأفاضل وتعرفت بهم، خصوصا

:

(114)

207 2

199 1

153 2

.145

16 1

43 1

243

73 10

134 2

75 1

(115)

(116)

(117)

170

بالحضرة الرباطية، منهم الأديب سيدي الحاج الطيب عواد السلوي(118)، والفقير السيد الحاج أحمد بن قاسم جسوس الرباطي(119)، والسيد الحاج عبد القادر لوبريس(120)، والفقير العدل السمي

(118)

59 1336

313 2

.180

(119)

61

1331

13

149

62

.199 1

39

2

289-281

2

(120)

1332

5

384 2

سيدي أحمد بن محمد بن ابراهيم(121)، والعلامة سيدي المكي بن علي البيطاوري(122)، والعلامة سيدي أحمد بناني(123)، وغيرهم من علماء وأدباء.

وقد بسطت القول فيما يتعلق بهذه السفارة في كتابي المعنون : ببلوغ المقصود بالرحلة مع سيدي محمود، وقد ضاع جلها، ولم يبق منها إلا ما استحسنته منها لإفادة بعض الأحياء، وقد أخذت بخاطر سيدنا محمود في رجوعي إلى مدينة فاس، واعتذرت بأعذار حلت عنده محل القبول، فرجعت إلى فاس.

الرجوع إلى استيطان طنجة

ثم انتقلت منها إلى استيطان طنجة مع أهلي، فطلب مني باشاها الأسعد البركة سيدي الحاج محمد الزكاري(124) أن أكون معه بمحكمته بصفة كوني كاتباً معه، وقصده بذلك انتقاعي بالمرتب الشهري، مع اطمئنان خاطره بالمشاركة معي فيما ينزل به من القضايا في الأحكام، وإيناس وحشته

				403
				(121)
1326				
		1330		
		40	1334	25
		:		
2		71		48
1	107			.249
			32 1	(122)
				(123)
			1340	1260
		:		
		1340	26	
		:		
51 2		77		
			.249 1	(124)
		:		
17		...		1339

من الإنفراد. وكان رجلا مفتوحا عليه في طريق القوم، فكنا في حال الفراغ من الفصل بين الخصوم نذاكر في الفنون، ونجني من أفانين المعرفة ما تتجلي به عنا الشجون.

وقد كنت شرعت في تقييد بعض الفوائد التي راجت بين الجانبين، خصوصا ما قيدته على حكم ابن عطاء(125) الله من ذلك، وسميته : فتح الباري بالذاكرة مع العارف الزكاري(126).

ثم استدعيت من إدارة المخزن برباط الفتح للخدمة في نظارة أحباس فاس الجديد، فانتقلت إليها فأقمت بها نحو الأربعة أعوام.

السفر إلى الحجاز(127)

وفي عام 1334هـ عينت نائبا عن الحضرة الشريفة في السفر للحجاز لتهنئة الشريف حسين باستقلاله ملكا على ذلك القطر المقدس، وتأسيس معهد بالحرمين الشريفين. وفي ضمن ذلك انتهاز فرصة أدائي لفريضة الحج، فأديت المأمورية صحبة رئيس التشريفات المولوية السيد الحاج عبد القادر ابن غبريط، المنفرد من قبل الحكومة بالترؤس على سائر الوفد المغربي والجزائري والتونسي والسنغالي المتوجه لذلك، فمررت على مرسيليا، ثم لباريز ذهابا وإيابا، ونزلنا في الغد، وبتنا بمصر القاهرة، واجتمعت في هذه السفارة بجماعة من الأعلام، واستجزت منهم البعض، وأجزت البعض، وقد ألفت في هذه السفارة رحلتي المسماة (بالبعثة المكية)(128) وهي في جزئين.

(125)

:

:

709

1 273 1 357 1 312 184 20 2 .221 (126)

1328

:

17 1 (127)

93 1 (128)

الإنتقال إلى خطة القضاء

ثم انتقلت من النظارة إلى خطة القضاء بمدينة وجدة، فقضيت ثلاثة أعوام في تلك المدينة حتى مللت القضاء بها، حيث لم أجد بها معينا على تأييد الحق، مع برودة الهمم، وتكاسل الناس عن طلب العلم، وتقاعد جلهم عن العمل، فاستعفيت من هذه الخطة الحضرة الشريفة بواسطة وزير العدالة الشيخ أبي شعيب الدكالي(129)، وقدمت له قصيدة منها :

إن القضاء قضى علي بوجدة
قد ضاع علمي إن أطلت إقامتي
يا ليت وجدة أو أنا لم توجد
من بينهم فتلاف ذا التلّف الردي

فسوعدت على ذلك، وفرحت كثيرا بذلك، غير أنني لما رجعت إلى فاس أنكرت من نفسي ما أجده منها مدة إقامتي بها مع الناس، ولم أدر هل ذلك من اعتياد نفسي لفخخة الكلمة التي كنت منتقها بها كبرا، أو تغير الناس حين تغيرت الحالة بإعفائي عن تلك الخطة التي يعدونها آية كبرى، فكنت أرى من العيون إغضا، وكم أشبع عرضي ذوو الأغراض عضا، والله الأمر من قبل ومن بعد. فعذرت بعض المستخدمين الذين هم في غنى عن الخدمات التي هم فيها منتصبون، وهم في مشقة الإستخدام ولا يستعفون، ويقول لي البعض منهم : نحن مستغنون عن الخدمة المخزنية، ولكن لا بد لنا منها، لأن العامة لا يحترمون إلا من له كلمة، ولولا الكلمة التي فيهم لأهانهم الأقارب، فضلا عن الأبعاد(130)، فعزمت على السفر من فاس بعد أن شرعت في التدريس في جامع القرويين مع الطلبة.

الرجوع إلى القضاء بعد الإستعفاء من قضاء وجدة

وفي أيام قريبة دعاني المخزن للمحكمة العليا بالأعتاب الشريفة، بصفة كوني عضوا بها، فانطلقت لرباط الفتح، وأقمت في تلك الخطة نحو العام ونصف(131)، فقضيت تلك المدة مستسلما للقضاء، ومعمرا للقضاء، بما كنت مشتغلا فيه باستخراج بعض مؤلفاتي من مبيضاتها. وقد ضربت صفحا عن تتبع جميع أحوالي، وطويت كشحا عن تفصيل ما أجملته بمقالي، مما يحتاج إلى مجلدات في بسطه، ويا ليت نفسي نظرت إلى ذلك بعين الإعتبار، فأبادر بالتوبة النصوح مع الإستغفار.

(129) 1 41
(130)

(131) 1 19

وقد أقمت في هذه الخدمة إلى أن دب في نفسي الملل منها، ومع ذلك خفت من الوقوع فيما كنت وقعت فيه أولاً من نفور الأحباب الذين رجعوا إلى مودتي، بعد الرجوع لخدمتي، ثم يسر الله لي بانتقالي إلى خطة القضاء بثغر الجديدة، فاستوطنتها من أول شعبان عام 1342هـ، وإنني لازلت بها إلى الآن، قائماً بالمأمورية بقدر الإمكان، ومشتغلاً بما أرجو من الله النفع به والانتفاع في السر والإعلان، سائلاً منه تعالى التوفيق لما فيه رضاه، مع طول العمر في طاعته بجاه من له الجاه، (ﷺ).

خاتمة متضمنة لقصيدة فيها مواضع مفيدة

وكتبه عن عجل طالباً من المولى تعالى مجده ستر العيوب، وغفران الذنوب، عبده الذي لا يزال على فضل مولاه يعرج، أحمد سكيرج، أمنه الله في الدارين، أمين، في ثامن جمادى الأولى عام 1345هـ، ولما كتبت هذه الحديقة، ورأيت في الشهر قبل هذا أنه قد تم من عمري خمسون عاماً قلت هنا مرتجلاً :

كلها أضغاث أحلام	هذه خمسون عاماً
هي عندي خمس أيام	هي خمسون ولكن
بين آلام وأسقام	ضاع فيها العمر مني
تم نصف غير أو هام	نصفها لهو ونوم
أرتجي في محو أثامي	ليت شعري أي شيء
بين إحجام وإقدام	وذنوبي في ازدياد
غير خمس الخمس النامي	لم أحصل من حياتي
كان بالتحقيق إعدامي	وإذا حققت فيه
قدره آلاف أعوام	وأرى في الشر عمري
ء مضى من غير إيهام	وهو في الخير كلا شيء
باختصار دون إيهام	ها أنا ترجمت نفسي
ناشراً في العلم أعلامي	ولقد أجملت فيها
شاهد قد قام قدامي	وعلى الأنفاس مني
كان مني بين أقوامي	فهو يحصي كل شيء
أو مع الغير بإفحامي	وسواء كنت وحدي
وأنلني خير إنعام	رب وفقني لخير
غير إيماني وإسلامي	ليس لي من حسنات
ذي المنصب السامي	وأنا مستشفع بالمصطفى
وسلام طول أيامي	فعليه صلوات
	وعلى الآل مع الأتباع في الحق بإتمام
	والحمد لله رب العالمين